المصطلح النقدي المعاصر وإشكالية الترجمة

" رؤية معرفية للمسار النقدي العربي المعاصر"

الدكتور: خروبي بلقاسم

مخبر الخطاب الحجاجي

جامعة ابن خلدون ـ تيارت ـ الجزائر

غدت اللّغة البشرية والملكة اللسانية عموما بريئة من أيّ عضال أو تأخّر يصيب أمّة من الأمم عبر مسارها التّاريخي، كما أنّه وفي المقابل يمكن أن نقول وبشكل حازم لا يحتاج إلى تدليل أنّها - أي اللّغة – وإن لم تكن – يوما سببا في التّأخّر، فإنّها وبطبيعتها التّواصلية وحمولتها الفكرية والاجتماعية سبب رئيس في التّطوّر وأداة ثقافية يسهل عبرها انتقال المعارف، وجسر وطيد تتمّ من خلاله فاعلية التّأثير والتّأثّر بين المجتمعات، كما أنّها وسيلة للفكر ووعاء له وصورة طبق الأصل للمجتمع في شدّته ورخائه في ضُعفه وبهائه فهي: "ليست أداة للقول ووسيلة للتعبير كما كان يقال، بل هي وسيلة للتفكير وتجسيده إنّها الفكر نفسه في حالة العمل وليس من فكر حيّ دقيق بدون لغة حيّة دقيقة"[1] لها قابلية التّمدّد والتّوسّع واحتواء الجديد من الفكر، فالفكر روح تأبى الثّبات والقيود وتسعى دوما إلى اكتشاف الجديد والتّلوّن بالجديد. ولا تكون اللّغة لغة حيّة إلّا إذا كانت وجها رديفا لذلك الفكر ، في ثباته وتغيّره في قديمه وجديده.

الكلمات المفتاحية: اللغة؛ التواصل؛ الفكر؛ القديم؛ الجديد؛ الكلمة؛ الثّقافة؛ التّرجمة؛ الهوية؛ الحضارة.

Contemporary Critical Term and Translation Issue

"A Cognitivist Vision of the Contemporary Arab Criticism Path"

Abstract: The human language and the linguistic capability have generally become innocent of any fatality or lateness that affects any nation through its historical course. It is also in contrast, we can resolutely say that does not need to pamper it - any language - but it were not - once the cause of the lateness. In its communicative nature and intellectual and social load, it is a major cause of development and a cultural tool through

تاريخ تسليم البحث: 13 جانفي 2018.

تاريخ قبول البحث: 25 ماي 2018.

which knowledge can be transferred, and a stiff bridge through which the effectiveness of impacting and being influenced among communities, as it is a means of thought and a vessel having a spitting image of the society in its intensity and prosperity its weakness and gorgeousness, it is: *"Is not a tool for saying and a means of expression as it was said, but is a way of thinking and its embodiment. It is the thought itself in the case of work and there is no living and accurate thought without an accurate living language."* It has the susceptibility to expand and extend, and the containment of the new thought, the thought is a spirit which refutes steadfastness and constraints, and always seeks to discover the new and variegate of the new. The language is not a living language unless it is a counterpart to that thought, its steadiness and change in its old and new.
Keywords: Language, communication, thought, ancient, new, word, culture, translation, identity, civilization

إنّ هذا التّطابق الوثيق بين اللّغة والفكر إلى جانب هذا التّلازم المحكم بين التّطوّر كغاية، واللّغة كوسيلة إلى التّطوّر بوّأ للغة ـ ومنذ أقدم الحضارات وبدءِ التّاريخ الإنساني ـ مكانة حضارية مرموقة وبابا واسعا ومنفذا سهلا للتطوّر، ذلك أنّ اللّغة في مفهومها الواسع بوتقة تنصهر فيها طبائع وخصائص كلّ المجتمعات، وخزّان أمين للفكر وجسر وثيق إلى التمدّن، كما أنّ وظيفتها الرّئيسية في **" هي نقل الخبرة الإنسانية والتّعبير عن الفكر واكتساب المعرفة، وعلى هذا فاللّغة ضرورة حتمية لتقدّم الثّقافة والعلم؛ لأنّ الألفاظ - كما يقولون – حصون الفكر وبالتّالي فلا وجود للفكر بدون اللّغة؛ لأنّ الكلمة أداة للتفكير في المعنى الذي تعبّر عنه"**[2] والحفاظ على اللّغة وجعلها قائمة حيّة تستنشق في كلّ لحظة من لحظات وجودها عبر الحضارات – في مقابل الفكر الذي هو روح اللّغة وجوهرها- هو بمثابة الحفاظ على القشر الذي إن صلح، صلح ما بداخله، وإن فسد واعتراه العفن فلا مناص من أن يفسد الدّاخل – هو الآخر – وتعفُن روحه.

وإذا كانت اللّغة كذلك بالنّسبة إلى الفكر – باعتباره حصنا منيعا له وأداة للتغيير ووسيلة للتواصل – فليس غريبا أن تكون عاملا أساسا للوعي الحضاري ووسيلة ناجعة لإدراك أفق المستقبل وحبلا متينا من شأنه أن يربط مصالح الأمم وخبراتها فيما بينهم، كما لها الفضل أيضا في **"تطوّر الثّقافة، وهذا التّطوّر السّريع الذي نلاحظه وذلك لأنّ الثّقافة لا تتطوّر إلّا من خلال الحصول على معلومات، وتبادلها والانتقال بها عبر الأجيال وبهذا تعمل اللّغة على كسب المعرفة، وتنمية التّجارب، والخبرات الإنسانية فهي أداة الاستمرار الشّعبي عبر القرون..."**[3]وبفضلها يمكن أن يتّصل الماضي بالحاضر، وعن طريقها يمكن أن يعرج الإنسان إلى احتواء المستقبل قبل أوانه وبوساطتها يمكن أن يُسرى بمعارف الأمم من أمّة إلى أخرى، وبها يمكن فقط أن يُهجّن الفكر ويُقَوْلَبَ من جديد. وبفضل طاقتها المتجدّدة يمكن احتواء كلّ جديد من الفكر أو خارجه، وبها نتّصل وبها نفترق فما هي أداة الاتّصال وآلية النّقل التي تلجأ

إليها اللّغة – أي لغة في العلم – لنقل خبرات الأمم؟ هل هناك وسيلة أخرى غير التّرجمة؟ ما هي أبعاد ودوافع التّرجمة الحضارية؟

الدّوافع الحضارية للترجمة:

لا أعتقد أنّ مثقّفا عربيا أو حتّى إنسانا عاديا، يجهل تلك الحقب المزمنة والكبوات الحضارية التي أصابت هيكل أمّتنا وصميم حضارتنا إلى درجة أنهكتها جراح التّاريخ المزمن وأحقاب الزّمن الدّامية وابتلاءات العصور الجارية على ناموس وقانون ابن خلدون، رقيٌّ، فبذخٌ، فسقوطٌ، غير أنّ واقع السّقوط الذي شهدته حضارتنا العربية الإسلامية كان شديد الوقع، إذا ما قارنّاها بالحضارات الأخرى التي شهدت الثّالوث نفسه. والسّبب في ذلك أنّ حقب التّمزّق واضطراب الحكم وتوقّف الحركة العلمية والثّقافية فيها كان مزامنا لذلك الاستعمار الشّرس الذي شهدته الأمّة قرنين من الزّمن، زاد فيها الطّين بلّة والجرح الواحد جراحا دامية، والجهل جهلين بالوحدة والثّقافة القومية أوّلا وبالمصير المشترك ومستقبل الأمّة الفكري ثانيا...

ولا غرو أيضا أن يئنَّ الجسد وتصرخ الجوارح – نتيجة السّقم الطّويل والمرض الدّفين فيها والذي أنهكها سنينا طوالا- فتستجيب الذّات لذاتها وتتفقّد الرّوح بقايا الجسد فيها، فتدج الهلاك قائما والموت دائما، ولا من يستجيب ولا من يغيث فتعود أدراجها إلى أشلاء الجسد الباقية وبقايا النّبض وهدءات الرّوح الواعية مُحاولة جمع ما تبقّى من تلك الهوية التي بات يشوبها الكثير من النّقص الذي يبقيها جاهلة بأناها وبالآخر معا، وتداركا لذلك النّقص ورأبا لذلك الصّدع فلابدّ أن تنطلق من الآخر من لمعرفته ولمعرفة أماها أيضا دون أن تفقد في ذلك ما تبقّى لها من تلك الهوية الضّائعة فيلفي التّاريخ والمشاحنات السّلطوية، وفي ظلّ عصر لا يعرف التّوقّف ولا الانتظار وفي ظرف فقدت فيه الأمّة حتى لسانها النّاطق الذي تمزّق هو الآخر أشلاءً، ولا من يأبه ولا من يحسّ حتّى " **مطلع القرن العشرين وجد الغرب أنفسهم متخلّفين عن الأمم الأخرى في مختلف العلوم، وقد واجهوا وضعا تحصل فيه عملية التّطوّر بسرعة كبيرة وتحدث المخترعات الكبيرة استجابة لمتطلّبات المجتمعات الصّناعية الغربية، وقد ناضل العرب لدمج تلك المخترعات في مجتمعاتهم وأدركوا أنّ الطّريقة الوحيدة لنشر ما تمّ انجازه هي القيام بترجمتها إلى العربية علّهم بهذه الطّريقة يستطيعون اللّحاق بالتّطوّرات الحديثة لتلبية حاجيات المجتمعات العربية الحديثة**"[4]. وكانت التّرجمة – في ذلك- الوسيلة الوحيدة والإجراء المعرفي الوحيد الذي تستطيع الأمّة من خلاله تدارك النّقص واللّحاق بركب التّطوّر؛ وذلك بترجمة المعارف والخبرات العلمية والتّكنولوجية من لغة المصدر إلى لغة الهدف.

ذلك أنّ الارتكان إلى الآخر في كلّ شيء واستلهام ونهل معارفه بلغته دون أن تخوض في ذلك عناء التّرجمة وصراع اللّغات فيما بينها تأكيدا للوجود ولحاقا بالرّكب وسبقا للزمن دون

ذلك يعني أنّنا نقرأ لهم ونتبع لهم ونعينهم في كسب الزّمن على حساب حضارتنا وثقافتنا وتراثنا وحاضرنا العلمي ومستقبلنا الإبداعي، لذلك " **تركّزت الجهود حول أهمية التّرجمة لنقل التّكنولوجية الغربية ولإدخال العلوم إلى الوطن العربي، فقد أظهرت الدّراسات الأخيرة بشكل واضح، أنّ ثاني اكبر حاجة لتعلّم لغة أجنبية هي لأغراض التّرجمة**"[5] حيث صارت هذه الأخيرة مطلبا رئيسيا ونهجا حضاريا لابدّ منه وفنّا وعلما لغويا لا يُستهان به في اختزال المسافة الزّمنية بيننا وبين الآخر المتطوّر وبامتطاء عجلة التّطوّر والسّير حذوها النّعل بالنّعل – لا أن نتركها تصافح يد المستقبل لنعود أدراجنا قهقريا إلى الماضي؛ من اجل تقبيل أطلال ليلى وامرئ القيس وللبكاء عليهما – ولا تكون هذه المحايثة والمسايرة الجادّة إلّا بترجمة تلك المعارف والنّهل منها عن طريق لغتنا لا لغة الآخر.

ذلك أنّنا إذا قلنا لغة الآخر يعني انّنا قلنا بسلطة الآخر وأقررنا ريادته الأبدية للركب الحضاري، وأقررنا الفشل والعجز لنا ذلك أنّ الثّقافة صرح وأولى لبناته هذا الصّرح اللّغة التي إن ضاعت حلقات وجودها ولبنات بنائها من هذا الصّرح، فقد هذا الأخير وجوده وخصوصيته وسماته المنفردة التي تميّزه عن الصّروح الثّقافية الأخرى وبالتّالي "**فالثّقافة صرح يُبنى، والبنّاء الماهر يبتدع الموّاد ممّا تهبه له أرضه أو يستعيرها من أرض مجاورة. إذ لابدّ له من أن يُرسي الأسس ويرفع العمدان ويكمل البنيان، والمترجم البارع بنّاء يشيّد صرح الثّقافة، فيبحث بلا كلل عن الألفاظ، يستولدها من لغته أو ياخذها من لغة أخرى، كيما يسمّي المسمّيات ويعبّر عن المعاني**"[6] تأسيسا للحركة العلمية وتأصيلا للثقافة من أجل منحها شيئا من ألواننا الحضارية وصبغاتها التّراثية وتيسيرا لاقتنائها؛ حتى تصير ملكا مشاعا وإرثا عامّا من حقّ أيّ فرد عربي الاطّلاع عليها. لا أن يبقى محصورا محتكرا في أيدي قليلة من المجتمع ممّن يحسنون لغة الآخر . وهنا تكمن الأهمية الحضارية للترجمة باعتبارها سبيلا لنقل المعرفة وتهجينها كما أنّها منفذ للخلاص من تسلّط الآخر وتزمّته، وطريقة ناجعة للحاق بركب التّطوّر واختزال الزّمن واحتواء الثّقافات دونما عناء كبير ممّا تجرّنا إليه لغتنا الأصلية. ومن اجل كلّ ذلك كانت التّرجمة ولا زالت الفنّ والعلم الوحيد الذي بإمكانه أن يوفّر شفرات الخطاب ومجال التّفاهم والتّبادل بين الشّعوب والأمم فيما بينها رغم اختلاف ألسنتهم واعتقاداتهم ومناهلهم الفكرية وغاياتهم المستقبلية المختلفة...لذلك كان لزاما علينا أن نرأب ذلك الاختلاف بيننا وبين اتّجاه الآخر، ثمّ نعود لنرأب ذلك التّباين بين نظريات التّرجمة التي تمثّل كلّ منها وجها مستقلّا عن الآخر، ممّا يتيح لها إمكانية الاتّحاد لتشكيل نظرية واحدة نوجّه التّرجمة وتأخذ بيدها إلى برّ الأمان، حيث وظيفتها الحقّة وغايتها الأسمى...

إمكانية الجمع بين نظريات التّرجمة:

لقد جرى وأن تحدّثنا فيما سبق مع الاختلاف النّظري الذي دار محوره حول ماهية ووظيفة التّرجمة، كما رأينا أنّ هذا الاختلاف كان باعثه الأوّل طبيعة تلك العلاقة التي أخذت شكل التّلازم بين اللّغة كحقل معرفي وبين التّرجمة كإجراء أو فنّ لغوي ممّا جعل العلاقة بينهما وطيدة غلى حدّ التّلازم. الأمر الذي ساعد إلى انتقال نفس الرّؤى والنّظريات التي دارت حول ماهية اللّغة ووظيفتها – بادئ الأمر – إلى ماهية التّرجمة ووظيفتها.

غير أنّنا وتبعا لهذا التّلازم الشّديد بين هذين الحقلين (اللّغة والتّرجمة) وتبعا للتعريف النّهائي للغة، القائل أنّها أداة تواصلية ونتاج فكري وظاهرة اجتماعية ارتأينا أن تكون التّرجمة كذلك؛ بمعنى أنّها أداء لغويّ صِرف وناقل ثقافي وحضاري وضرورة اجتماعية لا مناص منها؛ وذلك تجنّبا لكلّ اختلاف من شأنه أن يؤخّر عجلة التّطوّر أو يحول دوننا ودون احتواء تلك الثّقافات. حاصرينا جهدنا في جدل عقيم لا ينبت زرعا ولا ينجب فأرا. ذلك أنّ الرّكب مرتجل والزّمن لا يعرف السّكون والتّوقّف، والأحرى بنا أن ندرك هذا النّقص ونرأب هذه المسافة الزّمنية بيننا وبين الآخر المتطوّر، وحين يتمّ لنا ذلك، يبقى ذلك الجدل من قبيل التّرف العلمي الذي تبذله اليوم أوربا، كونها في الأفق المتطوّر فكيف لنا أن نجاريها في هذا النّوع من التّرف ونحن جائعون علميا قاصرون حضاريا، لذلك كان لزاما علينا أن" **نكرّر مقولة" تشاو" التي تقول: إنّ تهليم التّرجمة هو شيء يقوم على الجمع بين كلّ النّظريات، لذا ينبغي على مدرّسي التّرجمة أن ينتقوا الطّريقة المناسبة لتبني نظريات التّرجمة ومبادئها"**[7]. كلّها وجمعا بينها لتغدو بذلك أداء لغويا وحرفة أسلوبية وقواعدية كما أنّها ناقل ثقافي لابدّ أن تنهل منه بحذر وأنّها ظاهرة اجتماعية أو صورة للمجتمع المصدّر، الذي ينبغي أن نستفيد من رؤاه اتُّجاه العالم والأشياء المبثوثة دون أن يفرض علينا أو نتبنّى وبشكل مباشر وبطريقة عشوائية آراؤه وأفكاره تلك التي لا تخلو من رؤى فكرية وفلسفية معيّنة واعتقادية مباينة لنا حتما " **وستكون هذه النّظرية الشّاملة جديرة بالاعتماد عليها وقادرة على التّعامل مع كلّ العوامل التي تحتويها طبيعة التّرجمة وتقوم بالتأثير فيها"**[8] بل وقادرة على احتواء كلّ مظاهر الوجود باختلافاتها المتعدّدة والإلمام بكلّ المفاهيم الفلسفية والفكرية والأدبية والنّقدية والسّياسية والاقتصادية... وباختصار، وبمجمل الرّؤى والآراء التي تدور حول هذا العالم وما يدور في فلكه من علم إنساني وتجريبي. بهذه الطّريقة وفقط وبهذا الشّكل المُوحّد الذي إن اتّخذته التّرجمة أو بالأحرى المترجمون يمكن أن نقول وحينها فقط، أنّ التّرجمة أداء لغوي ونقل حضاري وضرورة اجتماعية ملحّة...

الإلمام بالمصطلح وروافده الفكرية...ضرورة حضارية:

فإذا تحدّثنا عن التّرجمة فيما سبق، فلا لشيء إلّا لكونها ذلك العالم أو الحقل المعرفي الذي بإمكانه أن يروّض المصطلح الوافد ويجعل له مقبلات عربية ذلك أنّ الأزمة المعرفية والتّأخّر العلمي نابع من إشكالية المصطلح، إمّا افتقارا إليه أو خوفا منه أو اختلافا في وضعه. كما أقررنا – سابق – أنّ المصطلح هو ذلك الوجه الجديد والمتحرّك من اللّغة التي لا يمكن أن يستوي لها عود أو نقوم لها قائمة في العصر الحديث وهي بمنأى عن المصطلح.

بل وبشكل حازم، نقول أنّ الثّورة الحديثة هي – في لبّها – ثورة اصطلاحية من أجل قلب الموازين القديمة وإفراغ كلّ لغة من محتوياتها الموروثة وشحنها من جديد مضامين ودلالات مستحدثة لا تكاد تخلو من روافد فكرية مخبوءة خلف ستار العلمية والتّقنية الحديثة التي صارت تضمر في ثناياها خلفيات إيديولوجية واتّجاهات فلسفية لا تخلو من خطر، وبشكل بطيء وغير محسوس يثير التّخوّف ويبثّ الشّكوك فبكلّ جديد ووافد إلينا من الضّفة الأخرى، خصوصا فيما يتعلّق بالمصطلحات النّقدية التي صارت تنبئ – جهارا – بخلفيات فكرية غربية مفادها التّمرّد على كلّ قديم وتجاوز الحاضر إلى المستقبل برؤى فلسفية مستحدثة أشبه بالعبثية واللّامبالاة وبالإباحية المطلقة لكلّ محضور، ورغم كلّ ذلك فإنّ " **الحديث عن المصطلح عامّة أصبح ذا أهمية كبرى في العالم بعد الذي عرفته البشرية من تقدّم في العلوم وما تعيشه التّكنولوجية من نموّ واكتساح لجميع مجالات العلم والحياة، فهو علم العلوم وجواز سفر للمستقبل، لذا نجد القائمين على قضايا اللّغات في تسابق لإيجاد أدوات التّعبير التي هي المصطلحات؛ لمواكبة التّقدّم العلمي...**"[9] ومعايشة الحاضر والتّجذّر فيه قصد بناء مستقبل حضاري زاهر انطلاقا من أساسية الحاضر المحكمة والرّاسخة الجذور غلى الماضي بفضل اللّغة التي هي نتاج ذلك الماضي وتفاعلاته وبفضل فاعلية المصطلح وحركيته الباعثة على التّجديد ومسايرة الحاضر العلمي والوافد الفكري عامّة، أمّا إذا تعلّق الأمر بميدان النّقد ومناهجه الفكرية الحديثة وإجراءاته التّطبيقية التي لا تخلو هي الأخرى من مصطلحات مستحدثة ووافدة إلينا من الآخر، والمعبّأة بحمولة فكرية ثقيلة ومثخنة بالتّساؤلات التي لا تخلو من تشكيك وخوف منه، فنجد أن " **الطّرح الجديد الذي يميل إليه أكثر النّقّاد المعاصرين، يجعل الحديث عن تحديد مفهوم النّقد الأدبي، يعني تحديد الأسس النّقدية التي يقوم عليها النّقد، والأهداف التي يصبو إليها ووفق الظّروف التّاريخية المعاصرة، ومن ثمّ الحديث عن الرّؤى الفكرية التي ينطلق منها والمناهج التي يستخدمها**"[10] ملتمسين في ذلك الجانب الإيجابي والوازع العلمي المفيد، طارحين كلّ غثّ وهزيل من شأنه أن يدنّس ثقافتنا أو يسيء إلى تراثنا.

والجدير بالذّكر في هذا المقام، أنّ أيّ جهد يُبْذل من طرف العاملين في الحقل المصطلحاتي – قصد ترويض اللّغة حتّى تكون لديها قابلية احتواء الحديث ومسايرة مستجدّات العصر ومتطلّباته الحديثة مع كشف النّقاب وإزالة السّتار عن كلّ محجوب فكري أو مخبوء إيديولوجي أي ثنايا تلك المناهج الغربية التي قلّما نجدها جريئة من ذلك – هو عمل إنساني نبيل ودافع قومي نعتزّ به ونشجّعه وضرورة حضارية لابدّ منها. صيانة للتراث وحفاظا على الهوية وتأبد للتميّز والتّفرّد "**الشّيء الذي يجعل المنهج النّقدي يختلف عن المناهج العلمية الأخرى لأنّ الظواهر الطّبيعية ثابتة ومحدّدة وبالتّالي يمكن إعادة التّجربة عليها، أمّا الظّواهر الأدبية والنّقدية فلها خصوصيتها لارتباطها بالعلوم الإنسانية التي لا تعرف الثّبات والاستقرار، فهي دائما في حركة وتطوّر وجدلية مستمرّة، ومن ثمّ فإنّ النّاقد الأدبي يستمدّ منهجه ورؤيته للحياة من واقعه المعيشي ومن التّطوّر الذي يعرفه مجتمعه**"[11] ذلك أنّ للبيئة الاجتماعية دورا بارزا وأثرا كبيرا وسلطة قاهرة يستطيع المجتمع أنّ يمرّ من خلالها إلى كلّ ظاهرة إنسانية أو نتاج أدبي أو فكري، فيصبغها بزيّه ويلوّنها بإحدى ألوانه، فتغدو صورة له وتعبيرا صادقا عنه بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، إلى درجة يمكن أن نعتبر فيها أيّ انتقال لإحدى تلك الظّواهر الإنسانية هو بمثابة انتقال المجتمع برمّته أو جزء منه، في تفكيره واعتقاده وطريقة عيشه.

والمهمّة المنوطة بالمثقّفين هو محاولة التّصدّي لتلك الظّواهر الوافدة والمعبّأة بمصطلحات من شأنها أن تعمل على تغيير فحوى قاموسنا العربي، وتنخر بقايا الفكر الأصيل فينا والهوية المتبقية والإلمام بروافد هذه الأخيرة الفكرية والفلسفية، حتّى نتمكّن من تجنّب غثّها والاستفادة من سمينها، تأكيدا للاستمرارية الحضارية ورفضا للقطيعة مع الماضي والتّراث، لذلك "**يولي مجمع القاهرة عناية خاصّة بالمصطلحات، حيث قعّد لوضعها ووجّه النّظر إلى تاريخها**" تفاديا لكلّ ما من شأنه أن يبثّ الخلخلة الفكرية والشّك المعرفي في ثقافتنا الرّاهنة التي لا تخلو من أصالة وامتداد تاريخي لهويتنا. وهذا بفضل ذلك التّقصّي التّاريخي سواء لموروثنا الحضاري أو للوافد إلينا تأصيلا للمعرفة وتأكيدا للهوية والوجود، واستعدادا لتشييد صرح الحضارة. أساسه الماضي العريق وجدرانه وأسواره الحاضر المعرفي المهجّن بين ثقافتنا وثقافة الآخر، وقبابه المستقبل، الأفق المنشود لدى كلّ حضارة إنسانية...

المصطلح حمولة فكرية، وإرادة بحاجة إلى تهجين:

إنّ الإلمام بالمصطلح وبروافده الفكرية وحقوله المعرفية التي ينشأ في حضنها المنهج أو المصطلح النّقدي على السّواء ليس هو الغاية المرجوة والهدف الوحيد والنّهائي من ذلك الجهد الذي تبذله المؤسّسات والهيئات الثّقافية – من أجل وعي المصطلح واستيعابه من كلّ الجوانب

المعرفية والاجتماعية والسّياسية المحيطة به "**بل إنّ الغاية العظمى من وراء كلّ ذلك هو كيفية تهجين ذلك المصطلح الوافد إلينا ومنحه شيئا من ألواننا الثّقافية والفكرية والحضارية التي تمنحه تأشيرة البقاء ورخصة الوجود في حقولنا المعرفية، خصوصا بما يتعلّق بالخطاب النّقدي الذي "لا يستمدّ إستراتيجية من موضوعه بل من الخطابات الإنسانية المتعدّدة التي تتداخل مع المكوّنات السّياسية والثّقافية للمجتمع؛ لتشكّل حدود الممارسة النّقدية وتنظّم قنواته المختلفة، ممّا يجعل مجمل المفاهيم المقدّمة للمصطلح النّقدي ترتبط بالمستويات المعرفية للنقّاد وبمنطلقاتهم الفكرية والفنية، فهي تعبّر بالضرورة عن رأي أصحابها في زمان ومكان معيّنين...**"[12] ولا بدّ لها حين تنتقل من بيئة معرفية معيّنة إلى بيئة معرفية أخرى تستوعب من جديد ملامح وخصائص البيئة الجديدة وأن تتماشى وفق المنطلقات الفكرية والثّقافية التي تخضع لها هذه البيئة محاولة بذلك تهجين السّابق بالرّاهن والوافد الآتي بالقائم المستقبل؛ ترسيخا لثنائية التّأثير والتّأثّر الإيجابية بين ثقافات الأمم وتأكيدا للمعنى الإنساني الموحّد الذي يربط شعوب العالم فيما بينها بعيدا عن مفهوم التّسلّط واحتكار المعرفة من طرف الآخر، غير "**...أنّ ما حدث في الغالب - وليس على وجه الإطلاق والتّعميم – هو مجرّد نقل سيّء لمقولات نقدية أو فكرية سيّئة التّرجمة، وغير مستمدّة إلى أصولها الفكرية، كان يجب أن يتواكب هذا مع حركة التّرجمة، وغير مستندة إلى أصولها الفكرية كان يجب أن يتواكب هذا مع حركة التّرجمة الحقيقية الشّاملة لأمّهات الفكر العالمي، ومع أمرين: التّحليل والمقارنة**"[13] للقديم الموروث في مقابل الحديث الرّاهن من أجل تشكيل منظومة فكرية ومعرفية جديدة تتماشى وظروف الزّمان والمكان الخاصّة بنا والمميّزة لهذا العصر. وليس الانكباب والانقطاع إلى القديم وحده أو إحداث القطيعة مع هذا الأخير والانفتاح مباشرة – ودون تنقيح أو تهجين – للوافد العربي.

ولا يتمّ لك إلّا بوعي جادّ وإرادة عازمة تضمن لنا صيانة الموروث واحترامه وقبول الآخر ومحاورته من أجل تشكيل الذّات العربية الحديثة وفق معالمها المكانية وملابساتها الزّمانية الحالية ومستواها الحضاري الرّاهن -تقدّما أو تدهورا – في مقابل الحضارات الأخرى وضمن قاموس عربي حديث يحوي كمّا هائلا من المصطلحات الجديدة التي تعمل على إرساء ركائز اللّغة العربية ورسم موقع لها ضمن خارطة اللّغات الحيّة والمتطوّرة دون أن تنسلخ - في ذلك- من رصيدها الفكري والحضاري الموروث تمييزا لمفهوم الحداثة العربية - في مقابل الحداثة الغربية – أساسها الماضي العريق وعودها الحاضر الممتزج بين الوافد والموروث، وعراها احتواء المستقبل والتّحكّم في آلياته الزّمانية والمكانية دونما تجاوز للحاضر ولا قطيعة عن الماضي

الموروث ومن هناك وفقط، يمكن أن تتشكّل الذّات العربية وتتّضح هويتها ويتجسّد وجودها بعيدا عن الانشطار والتّشظّي؛ الذي تعيشه اليوم بموروثها ولغتها اتّجاه وافد ولغة الآخر...

واقع المصطلح بين الأمس واليوم (خطوة لتأصيل إشكالية المصطلح):

إنّ الرّجوع إلى الوراء وتقصّي حقائق التّاريخ الماضي – الذي صاغه أجدادنا ومنحوه صبغة التّفرّد – لشيء واجب وضرورة تاريخية لابدّ منها، خصوصا ونحن داخلون أوّل عهد بالعرب وفي عقر الجاهلية بالضّبط، حيث كانوا قبائل مشتّتة تنخر وحدتهم المشاحنات القبلية والنّزاعات العشيرية، فلا سلم ولا أمن بين الإخوة الأعداء والحرب والسّيف هي فيصل الأمور ولسان الحال النّاطق بهم، ولكنّ العجب الذي يأخذنا ويبقينا مشدودين إليه هو ذلك اللّسان العربي الفصيح والموحّد بين تلك القبائل، رغم التّطاحن والتّنازع الذي كان سائدا بينهم سنينا طوالا تنفضي فيها أجيال وتخلفها أجيال والحرب قائمة بينهم واللّسان واحد -بينهم- لم يختلف.

غير أنّنا إذا تركنا تلك المرحلة الجاهلية من تاريخ العرب وعدنا أدراجنا إلى ما بعد الإسلام قليلا وبالضّبط إلى فترة حكم الأمويين ثمّ بني العبّاس، العهدين اللذين شهدا حركة علمية لم يعرف لها العرب سابقة من قبل معزّزة بحركة قوية للترجمة لم تعرف الإنسانية قاطبة مثيلا لها. غير أنّ العجب يأخذنا حين نضع نصب أعيننا هذه الحركة في مقابل حركة التّرجمة التي شهدتها الأمّة في العصر الحديث، ومدى الاختلاف الفائق بين الحركتين سلبا وإيجابا أين نجد الأولى رغم قلّة الوسائل ومشقّة السّفر وشساعة الرّقعة الجغرافية آنذاك التي تحول بين لقاء المترجمين أو العاملين على التّرجمة، فرم كلّ ذلك إلّا "**أنّ أجدادنا توصّلوا إلى استحداث المصطلحات وذلك بفضل الجهود اللّغوية الفردية والجامعية التي تكاملت حتّى كان لهم معاجم متخصّصة في شتّى العلوم إلى جانب المعاجم العامّة وبذلك أنجزوا مصطلحات تعبّر عن واقعهم، منطلقين من دوافع بريئة لسدّ النّقص في أسماء الأشياء التي يرونها حولهم**"[14] وفي مقابل ذلك، نجد النّقيض عينه -في عصر الحديث- حيث وسائل الاتّصال متوفّرة والمؤتمرات والملتقيات حول إشكالية المصطلح تكاد تملأ صالونات الثّقافة وقاعات المحاضرات ورغم التّطوّر السّريع في الكتابة ووسائل التّرجمة، ورغم المعاجم اللّغوية ومكاتب التّنسيق من الرّباط إلى بغداد، يبقى الاختلاف واردا وإشكالية المصطلح قائمة لا تزول، والشّعارات القائلة بالتّعريب لا تتوقّف والقرارات المفرغة من محتواها لا تفتأ حتى تعود من جديد وفي شكلها القديم لا تنبت زرعا ولا تلد فأرا، والقرار السّياسي يختفي وراء جدران القصور لا يأبه بالمشكلة ولا يولها اهتماما وهنا نطرح السّؤال: أين نحن من ذلك العهد؟ حيث لم تكن "**مجامع لغوية أو لجان جامعية أو مكاتب تعريب أو دوائر معاجم، ولذا كان جهد الفرد النّابه هو الذي يعوّض عن ذلك كلّه ويسدّ مسدّه، ولم يكن بين التّرجمة ووضع**

المصطلح وسطاء أو فجوات بل كان ثمّة ترابط تلاحم وتكامل..."[15] لا انشطار وتشظّي واختلاف كما هو الآن وضع المصطلح الحديث ولا أنانية وحبّ الظّهور ولا التّعصّب كما هو اليوم حال أغلبية المترجمين والعاملين في سلك المصطلح من المفكّرين علماء اللّغة، هذا لا يعني أنّ الاختلاف -في الماضي- فيما يخصّ المصطلح لم يكن واردا بين العاملين عليه، بل كان موجودا والدّوافع والأسباب في ذلك بريئة –كما أوردنا سالفا- نتيجة لجهل أحدهم لعمل الآخر أو عدم اقتناع في قضية سرعان ما يوجد لها حلّ، أو توارد ألفاظ هي من قبيل المفردات التي سرعان ما يُنتفى واحد منها لتصبح دالّة على المعنى العلمي أو الفلسفي الذي استخدمت من أجله، لذلك فإنّ "**... أيّ تدبّر للوضعية الاصطلاحية المعاصرة، يذكّرنا بوضعية المصطلح قديما، حينما شهد نموّه التّاريخي تصاعدا يؤكّد التّعدّد من دون تميز دلالي، يمنح كلّ مفردة اصطلاحية وعائها المعنوي وتاريخيتها الخاصة"**[16] بعيدا عن الجهوية، وفكرة المشرقي أقرب من معين اللّغة من المغربي، وأنّ هذا الأخير أقرب إلى الوارد الفكري وأكثر إلماما وتحكّما فيه من المشرقي وما إلى ذلك، حيث كلاهما خاسر وكلاهما بعيد عن اللّغة، وبعيد عن مفاهيم وأفكار الآخر، وتبقى المعاجم والمجامع واللّجان مؤسّسات تستهلك رؤوس أموال الأمّة من أجل فكّ خصام ونزع خلاف بين هيئة وهيئة ومفكّر ومفكّر غير أنّنا لابدّ أن نورد عاملا رئيسيا كان سببا في كلّ هذا التّشتّت والتّشظّي والذي لم يكن موجودا في الحركة الأولى التي قادتها الدّولتان –الأموية والعباسية- هو عامل السّلطة السّياسية التي تملك زمام الأمور وصاحبة القرار السّياسي في الأمة والتي نجدها تسير في اتّجاه نقيض تماما للاتّجاه الذي سلكه المثقّف العربي؛ حامل مشروع التّعريب وتنسيق المصطلح؛ أين تأفل العزيمة ويفشل المشروع وتخور الإرادة، رغم أنّ هذا الأمر "**... مطلب ملحّ ينبع من حاجات العصر الحاضر لأمّتنا العربية في أقطارها المختلفة، بل في أعظم الحاجات إلحاحا في عملية التّنمية الشّاملة التي يخوض العرب معتركها، وأفضل الاستثمارات فائدة ومنافع إلى جانب صلتها الوثيقة بالماضي وتراثه المجيد وبالمستقبل وملامحه الواعدة"**[17] والتي يعسر إدراكها إلّا في ظلّ تنسيق المصطلح ومشروع تعريب التّعليم في أطواره الثّلاثة، وفي كافّة فروعه وتخصّصاته العلمية.

وممّا تقدّم، لا يسعنا إلّا أنّ نقول أنّ الاختلاف في قضية المصطلح وتنسيقه، لا تزال واردة إلى اليوم تنتظر حلّا سريعا وجهودا مكثّفة وقرارا سياسيا صارما دون أن يأخذنا هذا الاختلاف الوارد إلى تهويل الأمر وتضخيمه إلى درجة تأفل فيه كلّ إرادة وتخور فيه كلّ عزيمة صادقة وجادّة، فالاختلاف المصطلحاتي وارد من القدم ومتجذّر في تاريخ حركتنا الأولى، ولكن بنسب متفاوتة مع اختلاف في الدّوافع والأسباب...

وفي الأخير نخلص إلى ما يلي:

▪اللّغة نتاج اجتماعي، ثقافي، والتّرجمة -باعتبارها فنّا لغويا- وسيلة لنقل كلّ ما هو اجتماعي ثقافي.

▪المصطلح الوافد حمولة فكرية فير بريئة، بحاجة إلى إلمام تاريخي بتربتها الفكرية وإلى هجين يضمن سلامة اللّغة التّراثية يمنحها جانب التّجديد الذي يتطلّبه العصر.

▪توحيد الرّؤى حول الأنا والآخر مع واجب الاقتناء من هذا الأخير سدّا للنّقص وربحا للوقت واستكمالا للهوية دون التّماهي الكلّي المباشر في الآخر.

▪الاختلاف حول المصطلح وتعدّده وارد من القدم مع اختلاف ماثل في العوامل والأسباب الدّافعة إليه ينتظر -في الوقت نفسه- القرار السّياسي الصّارم لتأييد مشروع التّعريب وتنسيق المصطلح.

راجين من المولى عزّ وجلّ أن نكون قد ألممنا ولو بشيء قليل بهذا الموضوع الشّائك مسلكه والعزيز مطلبه أن تتحقّق بعض أهدافه -ولا نقول كلّها- أن يلقى مشروع التّعريب أرضًا خصبة في المستقبل القريب إن شاء اللّه.

مراجع البحث وإحالاته:

---

1. شحاذة الخوري، دراسات في المصطلح والتّرجمة والتّعريب، ، دار الطّلاس للدراسات والتّرجمة والنّشر، دمشق، ط:01، ت ط: 1989. ، ص: 47.
2. عاطف مذكور، علم اللّغة بين القديم والحديث، منشورات جامعة حلب، مديرية الكتب والمطبوعات الجامعية، ت ط، 1987. ص:05.
3. المرجع نفسه، ص: 05.
4. د. محمّد شاهين، نظريات التّرجمة وتطبيقاتها في تدريس التّرجمة من العربية إلى الانجليزية وبالعكس،، مكتبة دار الثّقافة والتّوزيع (عمّان) ت.ط،1989. ص:49.
5. المرجع السّابق، ص : 46.
6. شحادة الخوري، دراسة في التّرجمة والمصطلح والتّعريب، مرجع سابق، ص:21.
7. د. محمّد شاهين، نظريات التّرجمة، ص: 136.
8. المرجع نفسه، ص: 20.
9. صالح بلعيد، المؤسّسات العلمية العربية ووضع المصطلح العربي مجلّة اللّغة والأدب يصدرها معهد اللّغة العربية وآدابها، (الجزائر) العدد:5، ت19994. ص: 236.
10. د. عمار زعموش – مفهوم النّقد الأدبي في نظر النّقّاد الجزائريين ، مجلّة عالم الفكر، المجلّد:30 ع:02 (الكويت ديسمبر 2001). ص: 100.
11. المرجع نفسه، ص: 123.

12. صالح بلعيد، المؤسّسات العلمية العربية ووضع المصطلح العربي – مجلّة اللّغة والأدب – مرجع سابق، ص: 237.

13. إدوار الخراط، عن الثّقافة العربية والعالمية، مجلّة العربي (الكويت، أكتوبر 2000)، العدد:503. ص:32.

14. صالح بلعيد، المؤسّسات العلمية العربية ووضع المصطلح العربي – مجلّة اللّغة والأدب – مرجع سابق، ص: 236.

15. شحاذة الخوري، دراسات في المصطلح والتّرجمة والتّعريب، مرجع سابق، ص: 27.

16. د. عبد الرّحمان عبد السّلام محمود، إشكالية الحداثة محاولة لوعي المصطلح والمرجعية والفنية، مجلّة عالم الفكر، ص: 73.

17. شحادة الخوري، دراسات في المصطلح والتّرجمة والتّعريب، ص: 45.